حصان طروادة الاستعماري في حياتنا الثقافية !

بقلم غالي شكري

كانت المفاجأة الجديدة التي حملتها الينا الرياح القادمة من بيروت هو هذا السيل الجارف من المجلات المتخصصة : أطفالكم تستهويها مغامرات « سوبرمان البطل الجبار » فليقرأوا اذن مجلة « سوبرمان » تصدر عن شركة المطبوعات المصورة . صبيانكم مولعون بمغامرات « الرجل الوطواط باتمان » فلنصدر لهم مجلة « الوطواط » عن نفس الشركة السابقة . شبابكم مغرم بالعميل السري « جيمس بوند » فليقرأ بنهم اذن المجلة المتخصصة جدا « الجواسيس » عن دار النشر المتحدة للتاليف والترجمة . فماذا تنشر هذه المجلة على سبيل المثال ؟ بحرف أسود بارز كتبوا تحت اسمها « اشهر واغرب قصص الجاسوسية العالمية وقصة الحرب السرية الباردة بين المعسكرين » . ثم يوجه الناشر خطابه الى قارئه العزيز : « ... هذا عصر الجاسوسية ، سواء في الحقيقة أم في القصة .. ففي نفس اليوم الذي اصطف الناس في طوابير أمام دور السينما لمشاهدة اخر افلام جيمس بوند ، أعلن مكتب التحريات الفدرالي في اميركا اعتراف جندي سابق في جيش الولايات المتحدة بالتجسس لحساب الروس » . والموضوع الاول في المجلة ـ نقلا عن الجزء الخامس من المجلد الاول ـ هو مقابلة أجراها المحرر مع « قطب كبير في دائرة الاستخبارات » على حد تعبيره .. ومن أهم الاسئلة والاجابات التي تمت في المقابلة ما جاء بالحرف في (ص ٤) :

« س : هل بوسع أي انسان عادي أن يلتحق بالاستخبارات ويقوم بمهمات تجسسية بمجرد قبوله وتوقيعه على الاوراق ؟

ج : ان معظم مؤسساتنا ومنظمات الاستخبارات لديها في هذا الشأن بعض المتطلبات التوظيفية .. وأيضا هناك بعض المناهج التدريبية التي يجب أن يمر فيها من يحوز القبول .

س : ما هي أهم الصفات والمؤهلات التي يجب توفرها في الجاسوس ؟

ج : هذا أمر يتعذر تمييزه وتوضيحه .. فمعظم الدبلوماسيين والملحقين العسكريين والملحقين الصحافيين والتجاريين يعملون اليوم كجواسيس طالما انهم يجمعون المعلومات بالسر . ولكنهم يتمتعون بستار ونطفية تامة ألا وهي الحصانة الدبلوماسية . تسألني بعد ذلك ما هي صفات الجاسوس ؟ انها مسألة تكمن في سيرة الاشخاص ، ومع ذلك فثمة صفات أساسية يجب توفرها في الشخص مثل أن يكون ماما ببعض اللغات سريع البديهة والمبادهة .. قوي الجسد .. الخ .

س : يتهم الجواسيس الروس بأنهم يستعملون الرشوة والتشهير والجنس والكحول والمخدرات وكل أداة أخرى شيطانية .. فهل باقي جواسيس العالم يلجأون الى نفس الاساليب ؟

ج : ولم لا .. كل هذا جائز وعادل سواء في الحرب الساخنة أم الباردة .. » .

هذه عينة فقط من حوار مثير كتب كما لو كانت المجلة اعلانا كبيرا عن وظائف خالية في دوائر وكالة المخابرات المركزية .. فاذا تصفحنا المجلة بعد ذلك لرأينا نماذج متعددة لجيمس بوند بين أحضان الفاتنات العاريات .. أو لقرأنا المغامرة الخرافية لاحد العملاء السريين الذي وقع في « قبضة الصين الشيوعية » . وليست « سوبرمان » او « الوطواط » الموجهتين الى الاطفال والمراهقين الا تصويرا كاريكاتوريا لمغامرات فتى العصر الاميركي : الجاسوس ! ولن نستطيع أن نحصر عدد المجلات اللبنانية من حيث المظهر ، الاميركية من حيث الجوهر ، المجلات التي تسمي نفسها « المغامر » أو « الابطال » أو غير ذلك من الاسماء التي تستهوي أعمار أبنائنا الغضة ، وتستهدف تنشئتهم على هذا المثال الذي ترسمه المخابرات الاميركية .

والملاحظ ان هذه المجلات قد ظهرت كسيل جارف في السنوات الخمس الاخيرة ، أي في الوقت الذي تكاد فيه السوق الوطنية أن تخلو من مجلات جادة للاطفال .. فالجهات المعنية في الولايات المتحدة تبدي اهتماما كبيرا بمسألة التوقيت الزمني .

وفي كتاب « الحرب النفسية ـ الجزء الاول » لصلاح نصر يقول (في ص ١٤٤ و ١٤٥) : ان الامر الذي أعاد تحديد مهام كل من معلومات الحرب ومكتب الخدمات الاستراتيجية في اميركا كان مسؤولا الى حد كبير عن طبيعة الحرب النفسية التي انشئت اثناء الحرب في القيادات الموجودة فيما وراء البحار .. وان المنطقة التي بدأت فيها الولايات المتحدة بمجهود عسكري في الحرب النفسية هي شمال افريقيا » . وهكذا صدرت في مصر عام ١٩٤٣ مجلة « المختار » التي كتب على غلاف عددها الاول ان مدير تحريرها : فؤاد صروف وان مديرها المالي : ت. ي. مورد . وقد ظلت هذه المجلة خمسة اعوام ، أي الى عام ١٩٤٨ حيث توقفت ، تؤكد على ان الجيش الاميركي حصن السلام في العالم ، وان الولايات المتحدة هي حامية الحرية على ظهر الارض . كذلك فان الرسالة الحضارية للانسان الاميركي « الثري بطبيعة بلاده » هي الارتفاع بمستوى الشعوب المتخلفة « الترف مملكة للحضارة ـ المختار ـ يوليو ١٩٤٦ » . وتقديم صورة سحرية عن البلدان المناضلة ضد الاستعمار ، فهي بلاد الغموض والنساء الساحرات . ثم تقديم الرأسمالية الاميركية في ثوب جديد يسمونه الرأسمالية الشعبية حينا ، والاشتراكية الجديدة التي تمزج بين كرامة الانسان وحريته حينا اخر (المختار ـ اكتوبر ١٩٤٦) . واخيرا تقديم « فتى العصر » او « البطل » في صورة العصامي الذي يبدأ من السفح حتى يصل الى القمة . كان ذلك خلال السنوات الخمس من ١٩٤٣ الى ١٩٤٨ حيث لم تكن قد اسفرت اميركا بعد عن وجهها الاستعماري العدواني بجلاء . ثم توقفت « المختار » عن الصدور سبع سنوات ، وعاودت الصدور في أول يناير ١٩٥٦ حيث كشفت اميركا عن الوجه الارهابي المباشر في تهديدها بالسلاح .. فهكذا لم تعد الولايات المتحدة حامية للفكر والحضارة والحرية وغيرها من المجردات والمعنويات والقيم ، بل أصبحت حامية للارض والناس .. تهدد « في عدد فبراير من المختار » بقول الكاتب « هنا تصنع القنبلة الهيدروجينية » او « الغواصة الذرية سلاح رهيب » ولم تعد تقتصر على وصف البلدان المتخلفة بالغموض والسحر ، بل اصبحت تهاجم ما يموج بها من انتفاضات وطنية .

ان أحدث أعداد « المختار » يتضمن ثلاث مقالات رئيسية أولها بقلم آن لندبرج عن مجلة « لايف » تحت عنوان « اكتشفت نفسي في افريقيا » حول رحلة صيد « عائلية » قامت بها الكاتبة في شرق افريقيا (المختار مارس ١٩٦٧) . وتخرج من المقال بأن افريقيا حديقة حيوان كبيرة ومسلية وتغري بالمغامرة . وفي نفس العدد مقال ملخص من

مجلة « تايم » عبارة عن « كشف حساب ارباح الزنجي الاميركي وخسائره » فنراه يقول بالحرف (ص ٢٧) : « انه على الرغم من ان البيض ما زالوا يحسبون اكثر كثيرا من الزنوج فان دخل الزنوج في عدد من المناطق قد ارتفع بمعدل ٢٤ ٪ منذ سنة ١٩٦٠ مقابل ١٤ ٪ فقط للبيض » . وفي (ص ٢٨) يقول : « وفي الجنوب يستخدم الذين حصلوا على قدر طيب من التعليم لاول مرة في وظائف الكتبة ورجال البوليس والمرضات في مستشفيات البيض ومدرسين في مدارس البيض » . وفي (ص ٢٩) يقول : « احرز الزنوج مكاسب مثيرة في ميدان التعليم ، فقد ارتفع عددهم في الكليات والجامعات الى ٢٣٤ ألفا ، وهو رقم اكبر كثيرا من جملة عدد الطلبة في بلجيكا والسويد والنرويج والدانمرك وفنلندا وسويسرا معا » . وفي (ص٣٠) يقول : « انه في الميدان السياسي كان التقدم عظيما ، فقد ارتفع عدد الزنوج الذين يتقدمون للوظائف التي تشغل بطريق الانتخاب الديمقراطي بنسبة ٣٤ ٪ في الحزب الديمقراطي خلال العامين الماضيين فقط ، كما ارتفع عدد الزنوج في الكونغرس الاميركي من اثنين في عام ١٩٥٤ الى سبعة في الوقت الحالي » .

اي ان اميركا ببساطة هي جنة الزنوج ، وليست — كما يقال — جحيما يدعى احيانا بمأساة التفرقة العنصرية .

وهكذا نجد ان المجلة الموجهة الى مثقفي البرجوازية الصغيرة في مصر والمنطقة العربية باسرها قد غيرت من لهجتها ومحاور تفكيرها عما كانت عليه بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٨ اذ اصبحت بوقا للولايات المتحدة في مرحلتها الجديدة حيث تكشف عن انيابها الذرية وتشوه الحركات الوطنية وتستعدي الشعوب الحرة على الاشتراكية والمعسكر الاشتراكي (١) .

على ان المخابرات الاميركية لم تقتصر في الحرب الفكرية التي تشنها على شعوب المستعمرات والبلدان المستقلة حديثا ، على المجلات المتخصصة حسب الاعمار والبيئات والاهتمامات ، بل واظبت على شكل آخر من اشكال « تصدير الفكر » في مقدمتها دور النشر التي تحمل واجهات براقة كشعار « مؤسسة فرانكلين » . « مؤسسة ثقافية غير تجارية » عن طريق اتفاقيات التبادل الثقافي التي يتم توقيعها على مستوى الحكومات ، وان ترك الأمر في بلد كالولايات المتحدة لشركات ومؤسسات تكشف الصحافة الاميركية هذه الايام بصراحة مذهلة عن مصادر تمويلها ، التي يخرج معظمها من خزينة وكالة المخابرات المركزية .. واما عن طريق مكاتب الاستعلامات التي تخضع بصورة أو بأخرى لاشراف نفس الوكالة كما جاء في كتاب « الحكومة الخفية » (ص ٣٩٢) وهكذا ظهرت مؤسسة فرانكلين في القاهرة عام ١٩٥٣ كأول فرع لهذه المؤسسة الاميركية خارج الولايات المتحدة .

واذا كانت اتفاقية التبادل الثقافي بيننا وبين اميركا تجيز نشر الكتب الاميركية التي تساهم في عملية « التقارب بين الشعبين » واذا كانت هذه الاتفاقية تنص على عدم جواز نشر ما يسيء الى النظام الاجتماعي والسياسي لكل من البلدين فان مؤسسة فرانكلين دأبت منذ عام ١٩٥٣ الى الان على تنظيم مواجهة فكرية غير متكافئة لتطورنا الاجتماعي والسياسي . واقول « غير متكافئة » لاننا من جانبنا لم نقم في الولايات المتحدة بتأسيس دار مصرية للنشر مهمتها التحرش بالنظام الاميركي والدس له . وأقول « غير متكافئة » لان مؤسسة فرانكلين لم تقم من ناحيتها بتنفيذ نصوص الاتفاقية فيما يختص بترجمة الكتب العربية الهامة الى اللغة الانكليزية وطبعها وتوزيعها على الدوائر العالمية والفكرية والادبية في الولايات المتحدة الاميركية . وأقول « غير متكافئة » لانه لم يحدث بين دور النشر المصرية ومؤسسة فرانكلين أي صراع يذكر ، لان المؤسسة كانت من الذكاء بحيث انها بادرت لا بتجميد أية امكانيات وليدة للصراع فحسب ، بل وتجنيد أهم دور النشر المصرية في خدمة أهدافها الخفية والظاهرة . واقول أخيرا انها نظمت مواجهة فكرية « غير متكافئة » لتطورنا الاجتماعي والسياسي ، لانها قامت باغتيال معظم الطاقات المصرية القادرة على المجابهة فأشركتها فيمجالس ادارتها ومستشاريها مباشرة . أو أشركتها في الربح عن طريق البيع والشراء مع مكتبات وزارتي التربية والتعليم والتعليم العالي . أو انها أشركتها في الكسب بواسطة تقديم الكتب واعدادها وترجمتها والاشراف عليها ومراجعتها الى اخر هذهالتسميات التي يسدد بها موظفالحسابات في فرانكلين خانة المبلغ المدفوع .

فرانكلين ليست تبادلا ثقافيا

والان ما هي المواجهة التي قامت بها فرانكلين حين خرجت من بطن الحصان الطروادي الى حياتنا الثقافية ؟ لقد رسمت سياستها في نيويورك على أساس أن الموافقة النهائية على الكتاب المقترح ترجمته تتم هناك في اميركا . وعند التنفيذ رسمت هذه السياسة طوقا جديدا يحيط بكافة الاهداف التي حرصت المؤسسة منذ البدء على اصابتها : الطفل الصغير والشاب في مقتبل العمر والرجل الناضج والسيدة المتزوجة ربة المنزل والمرأة العاملة .. الى بقية القائمة التي تتلخص في مجموعها مختلف فئات الشعب المصري وطبقاته الاجتماعية . ومن أجل اصابة هذه الاهداف التي يحددها اطارنا الفكري الواضح وهو التطور نحو الاشتراكية ، كرست المؤسسة مجموعة من « السلاسل » التي تخصصت في التربية كسلسلة « دراسات سيكلوجية وعلم النفس للاباء والمدرسين » وسلسلة « الثقافةالعائلية » وسلسلة « بحوثتربوية في خدمة المعلم » وسلسلة « التعليم في ضوء التجارب » .. وهناك السلاسل التي تخصصت في العلوم مثل « ألف باء » و « كتابك الاول عن » و « العلوم المبسطة » و « كل شيء عن » و « معالم الطريق » و « حول العالم في كتب » وسلاسل أخرى عن فن الادارة « كيف تكون مديرا ناجحا » و « رجل الادارة » و « دولة الادارة » و « المؤتمرات المثمرة » و « كيف تدير المناقشة » . أما ماذا تقوله هذه السلاسل جميعها فهي تقدم في صورة تبدو كما لو كانت محايدة وموضوعية تماما « المثال الاميركي الناجح » للمعلم والتلميذ والمهندس والطبيب والعامل والمدير والسياسي ورجل الاعمال والفلاح .. الى غير ذلك من نماذج بشرية ترغب السياسة الاميركية لمؤسسة فرانكلين أن تصوغها وفق « الحكم الاميركي » في السيطرة على الشعوب عن طريق اتساع الهوة بين المواطن ووطنه فلا يجد ملاذا يؤويه سوى « الجنة الاميركية » . وتقلم المؤسسة أظافر الكتاب العرب والمترجمين العرب ، فتدفع أحدهم مثلا لان يكتب مقدمة لكتاب « قصة افريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، تأليف كاثارين سانيدج » . ويقول المترجم في مقدمته ان الكتاب يتميز بروح من الدقة العلمية والنزاهة في العرض ، بينما يبرر المؤلف الاستعمار البرتغالي لافريقيا بأنالبرتغاليين انما « علموا أهلها كيف يزرعون النباتات » . وتدفع نفس المترجم أن ينقل كتابا عنوانه « نظرات في مستقبل الحركة العمالية » يقول مؤلفه عند الخاتمة أن النظام الذي يتعرض للمحاكمة الان ليس هو النظامالرأسمالي بل هو النظام الاشتراكي ، والنموذج العظيم للرأسمالية الحديثة هو النموذج الاميركي .. لذلك تترجم المؤسسة كتابا مثل « البيت المسحور — تأليف جوليوس شوارتز » يقدم البيت الاميركي البديل الراقي المتحضر للبيت الذي يسكنه القارىء المصري ، وكتابا مثل « تعال معي الى السد — تأليف لي دافيد هاملتون » يتضمن وصفا تفصيليا لسد جلين كاينون باميركا ، الذي يعتبر أعظم المشروعات الانشائية الحديثة ، مع ملاحظة ان الكتاب نشر في سلسلة موجهة الى الاطفال كذلك الكتاب الذي يقول فيه المؤلف : «كان الشعب المصري شعبا نبيلا معتدا بنفسه ، وعاش ملوكه في أبهة من الذهب والجواهر لا نجد لها مثيلا في عالمنا » ثم يضيف : « وانقرض هذا الشعبالقديم وتلاشى ما بقي منه في جنس أجنبي من الغزاة ، وبقي فقط أعظم

(١) أرجو مراجعة الدراسة التي نشرها صلاح عيسى بمجلة « الحرية » في عددي ٢٥٤ — ٢٥٥ من يناير ١٩٦٥ .

آثاره وأقواها بناء وأغلبها أطلال » (ص ٥٩ من كتاب البعثات العلمية الشهيرة ، تأليف رايموند هولدن) .

وتلجأ المؤسسة أحيانا الى ما تسميه بالتعريب ، فتخلع الاسماء الاميركية وتضع مكانها الاسماء العربية فيتألق الحلم الاميركي في الذهن العربي القارىء حتى ليكاد أن يكون واقعا ممكنا .. لو اننا أخذنا بالوجه الاخر للقضية ، اتجه الذي توليه فرانكلين جل رعايتها واهتمامها وهو النظام الاقتصادي والسياسي فتنظم خطتها وفق تطور الاحداث في بلادنا ، فاذا كان تطور القانون هو الموضوع المثار صدر كتاب مثل « النظام القضائي في الولايات المتحدة » ، واذا كانت انتخابات الرئاسة هي الموضوع المثار صدر كتاب مثل « سلطة الرئيس في الولايات المتحدة » ، واذا كان الدستور هو المثار صدر كتاب مثل « التجربة الدستورية في الولايات المتحدة » ، واذا كانت الحرب في فيتنام هي الموضوع المثار صدر كتاب مثل « قصة الدنيا الجديدة » يبرر القاء القنابل الذرية على هيروشيما وناكازاكي ويؤكد أن اميركا تعاون بقية الامم على أن تعيش في سلام دائم (١) .

يتم ذلك في تنسيق كامل ودقيق مع مكتب الاستعلامات بالسفارة الاميركية فيصدر كتبا في نفس الموضوعات المثارة بأسعار زهيدة وورق فاخر وقد خلت من خاتم فرانكلين او أية شبهة اميركية ظاهرة .. فالناشر عربي والمترجم عربي ، ولا شيء اخر يثير الشبهة سوى السعر الزهيد والورق الفاخر والموضوع الاميركي والمعالجة الاميركية ... بالاضافة الى هذا التوقيت المريب .. وهذه الدقة في اختيار القضايا المطروحة .. فعندما نوقشت خطة التنمية في بلادنا ظهرت على الفور هذه الكتب « الرخاء بدون تضخم » ، و « تجارب في تنمية المجتمعات الصغيرة ومعونة الدول النامية » و « أضواء على التنمية الاقتصادية » و « فلسفة النظام التعاوني » . ان المؤسسة الاميركية ومكتب الاستعلامات الاميركي لا يكتفيان بتقديم « النموذج الاميركي » الذي يجسد في عقل القارىء العربي وخياله « حلما » دائما ، وانما هما يقدمان « الطريق » الاميركي لتحقيق هذا الحلم وذاك النموذج . انهما يقدمان « الحل » السياسي والاقتصادي البديل لنظامنا الاجتماعي فيهيئان بذلك مناخا فكريا للثورة المضادة . وليس هذا الهدف الذي ترسمه وترعى تنفيذه وكالة المخابرات المركزية هو الهدف الذي صاغته الاحرف والكلمات في بنود اتفاقية التبادل الثقافي بيننا وبين الولايات المتحدة الاميركية . انهم يستخدمون الاسماء الكبيرة في ثقافتنا للتضليل والارهاب العلمي ، ويصدرون المراجع الكبرى والموسوعات التي تربط ثقافتنا تلقائيا بعجلتها لعشرات السنين وهم يعدون ما يسمونه بالاستفتاءات للاستطلاع برأي الطلبة والمدرسين وأمناء المكتبات ثم يصدرونها في أبحاث خلت أغلفتها من أسم فرانكلين وكتب عليها « وزارة التعليم العالي ـ التخطيط » و « وزارة التربية والتعليم ـ مكتب خبير التقويم والامتحانات » . واذا أثيرت قضية تطوير التعليم صدرت كتب مثل « التعليم العالي في الولايات المتحدة » و « أحاديث عن التعليم في اميركا » و « مدارس الغد في الوقت الحاضر » وهو تقرير عن التجارب التعليمية لوزارة التربية بولاية نيويورك .

لقد نجحت السياسة الاميركية ـ سواء كانت وكالة المخابرات المركزية أداة تنفيذية أو جهة تمويلية ـ في أن تجند لخدمتها شبكة هائلة من دور النشر المصرية والعربية التي تفضل الطريق السهل الى أكبر وأسرع ربح ممكن . والتسهيلات الضخمة التي تقدمها فرانكلين والسفارة الاميركية تكفل لها هذا الطريق القصير . كما نجحت هذه السياسة في تجنيد جيش ضخم من الكتاب والمترجمين ارتبطت مصالحهم بالمكافآت السخية التي تصرفها جهات التمويل في مقابل التقديم او المراجعة او الترجمة أو الاعداد أو الاشراف او الاستشارة أو عضوية مجلس الادارة .

(١) راجع مجلة « الكاتب » ـ عدد يناير ومارس ١٩٦٧ ـ مقال عبد الجليل حسن .

الجامعات الاميركية أو مخلب القط :

على ان حصان طروادة الاستعماري لم يكتف فقط بسيل المجلات المتخصصة ودور النشر وأصدار الكتب .. وانما كان يرى في معاهد التعليم ـ وخاصة الجامعات ـ أسلحة بارعة في أصابة الهدف . والى وقت قريب كانت هناك جامعتان في الشرق العربي احداهما في بيروت والاخرى في القاهرة .. وفي مارس الماضي وضع حجر الاساس في طنجه بالمغرب لاقامة الجامعة الاميركية الثالثة في المنطقة العربية .

أما في بيروت ، فقد أذاعت لجنة الطلبة في الجامعة الاميركية تقريرا ضمنته نتائج أبحاثها في النشاط المشبوه الذي تقوم به الجامعة الاميركية في بيروت . وقد أكد التقرير وجود علاقة بين هذه الجامعة ووكالة المخابرات المركزية الاميركية وأن رئيس الجامعة الاميركية مستر كيركود يعرف أسماء العاملين في خدمة المخابرات داخل الجامعة . كما كلفت المخابرات الاميركية أحد أساتذة الفلسفة بتنفيذ خطة لمحاربة الانتاج الفكري التقدمي . وقال التقرير ان المخابرات الاميركية تستتر خلف برامج تعليمية محددة لتوجيه أسئلة خاصة تتعلق بعلم النفس والاجتماع ، وترسل الاجابات على هذه الاسئلة الى مقر المخابرات في اميركا « كما جاء في الاهرام بتاريخ ٢٢ ـ ٣ ـ ١٩٦٧ » نقلا عن وكالات الانباء . وهو نفس المنهج الذي تتبعه الجامعة الاميركية بالقاهرة ، فقد حدث أن أوفدت ثلاثة أساتذة هم ماكورد ودولب الاميركيين وفاخوري الاردني الى محافظة اسوان للقيام بمسح اجتماعي وسيكولوجي لشعب المنطقة . ولكن طبيعة الاسئلة أثارت الشكوك عند المسؤولين في المحافظة . ومن ثم كان الموقف هو أن السلطات كتبت رسميا الى الجامعة تقول انه ينبغي أن يرجع الاساتذة والطلبة الوافدون الى الجهات المسؤولة في المحافظة قبل وبعد توزيع الاسئلة على العينات البشرية المطلوبة وذلك حتى يتحقق لنا نوع من الاشراف القومي على الابحاث التي تقوم بها جامعة أجنبية داخل حدودنا . ولكن الجامعة الاميركيه رفضت هذا الطلب العادل من جانب السلطات المصرية التي لم يكن امامها ـ والحالة هذه ـ الا ان ترفض بدورها الجولات المريبة للطلبة والاساتذة الاميركيين بين عمال السد العالي وشركة كيما . ان وحدة المنهج بين جامعتي بيروت والقاهرة الاميركيتين مصدرها وحدة الادارة العليا التي يتبعانها في واشنطن .. والجامعة الاميركية في أي بلد عربي ليست الا أداة تنفيذية في أيدي سادتها في الولايات المتحدة . فقد حدث أن اهتمت الجامعة الاميركية في القاهرة بدراسة التاريخ المصري الحديث اهتماما آثار الريبة الشديدة، اذ بدأت تتصل ببعض الشخصيات السياسية من رجال ما قبل الثورة لتحصل على مذكراتهم . كما بدأت تتصل بعائلات بعض الشخصيات التي أصبحت في ذمة التاريخ لتحصل أيضا على مذكراتهم .. ولما كان الامر يتصل مباشرة بتاريخنا القومي فقد توجهت الجهات المسؤولة الى ادارة الجامعة الاميركية بالقاهرة يقول : « اننا لا نرفض التعاون العلمي بل نرضى به ، ولكننا نرى أن يكون هذا العمل المشترك بين أساتذة التاريخ المصريين والباحثين الاميركيين تحت اشراف جامعة القاهرة » .

وقد ردت رئاسة الجامعة برفض الاقتراح ، وان لم تسحب المشروع ، بل ضاعفت نشاطها عن طريق المكتبة التي حشدتها بمختلف المراجع الاميركية ، وممر الفنون الذي يسرت فيه عرض لوحات الفنانين المصريين ودعوة بعض ادباء الغرب للالتقاء بالمثقفين المصريين .

وبالرغم من ان تقرير لجنة الطلبة بالجامعة الاميركية في بيروت ينطوي على اتهام جميع الجامعات الاميركية خارج الولايات المتحدة ومن بينها الجامعة الاميركية في القاهرة ، الا اننا نضيف أيضا ما أعلنه الدكتور ماكلين مدير الجامعة الاميركية بالقاهرة عن أن هذه الجامعة قد تلقت عام ١٩٥٩ من حكومة الولايات المتحدة منحة مقدارها ٥٠٠،٠٠٠ دولار لتوسيع نطاق منشآتها « وستؤخذ أموال هذه المنحة من أرصدة برنامج الامن التبادل الاميركي . ويعتبر هذا الامر من جانب الولايات المتحدة جزءا سادي المفعول من جانب حكومة الولايات المتحدة لتعزيز

المعاهدة الاميركية خارج الولايات المتحدة » (كما جاء في نشرة الانباء رقم ١٥٧٣ لمكتب الاستعلامات الاميركي) .

كذلك أذيع عام ١٩٦٤ ان ثلاثة معاهد اميركية للتعليم في الشرق الاوسط سوف تتسع ويزداد نشاطها « بالمنح التي ستقدم اليها من وكالة التنمية الدولية » وهذه المعاهد هي الجامعه الاميركية فيبيروت والكلية الاميركية في بيروت والجامعة الاميركية في القاهرة وهي معاهد خاصة أنشئت منذ زمن طويل وتلقى المساعدات من الهيئات في الولايات المتحدة ومن بينها مؤسسة فورد .. وقد أفاضت الصحف الاميركية في ايضاح العلاقات التمويليه بين هذه الهيئات وبين وكالة المخابرات المركزية ، فهي اما أنها تساهم بجزء من المبالغ المدفوعة ، أو تقوم بدور السمسار أو « القومسيونجي » الى غير ذلك من الشرايين التي تنبع من المخابرات أولا ثم تصب في النهاية عند الجداول التي تحمل لافتات ثقافية « خاصة » و « غير تجارية » ، وان لم تنس هذه اللافتات وظيفتها الاصلية في الوقت المناسب فتكشف الجامعة الاميركية في بيروت عن طبيعتها فتفصل ١٢ طالبا عربيا في نوفمبر ١٩٦٠ لاشتراكهم في مظاهرة من أجل الجزائر « وقد وصف وزير التربية اللبناني الجامعة الاميركية في استجوابه بالبرلمان بانها دولة داخل دوله » .

ولما كانت وكالة المخابرات المركزية تعمل بموافقة لجان الكونغرس الكاملة التي أنشئت لمراقبة المخابرات وعملياتها فيما وراء البحار ، أي ان عملياتها جزء من السياسة العامة - التي لا تعلن مطلقا - لحكومة الولاياتالمتحدة (رينشارد هاروود - الاهرام ٦ - ٣ - ١٩٦٧) وبالتالي فان تستر هذه الجامعات وراء العبارة التقليدية « معونات حكومية » أو « معونة هيئات خاصة » لم تعد تضلل أحدا من المثقفين العرب .. الا هذا النفر الذي تجاوز مرحلة « الشبهة » او « حسن النية » الى مرحلة العمالة المباشرة بما يتولاه هذا أو ذاك من مراكز استراتيجية في حياتنا الثقافية تتبع هذه الهيئة أو تلك من الهيئات الاميركية المشبوهة .. كل هذه « المناصب » الاميركية تجعل من صاحب هذا الاسم أو ذاك ممثلا مباشرا للمصلحة الاميركية في الشرق الاوسط على الصعيد الفكري ، لانه أولا وأخيرا « موضع ثقة » اكبر الجهات المسؤولة عن توجيه حصان طروادة الاستعماري في حياتنا الثقافية . وليس هذا الاسم او ذاك الا نماذج لهذا النفر من المثقفين العرب الذين ارتبطت مصالحهم نهائيا بقواعد الاستعمار الفكري لبلادنا . فالنسبة المشتركة بينهم جميعا أنهم ضالعون في تنفيذ المخطط الاميركي لمعركة الفكر في الجبهة العربية ، والسمة الاخرى هي انك تجدهم على أغلفة المجلات المشبوهة ، والكتب الزهيدة الثمن ذات الورق الفاخر ، ومجالس ادارة المؤسسات السخية في الدفع ، ودوائر التعليم الوافد من وراء البحار .. كل هذه المناصب مجتمعة في وقت واحد . فكيف يمكن لهذا النموذج من « المواطنين » أن يرفع عينه في وجه « السيد الاجنبي » أو على أقل تقدير ، كيف يمكن ان يخدم الثقافة الوطنية ، وقد تأقلم اجتماعيا واقتصاديا وذهنيا بأجهزة التكييف الاميركية ؟

اننا حين نقرأ في الصحافة الاميركية هذه الايام عن تمويل المخابرات الاميركية للمعهد الافريقي الاميركي والجمعية الاميركية للثقافة الافريقية وهيئة التبادل الثقافي الحكومية والتبادل الثقافي معافريقيا (ومجلتا أفريكا ديبورت وأميركان فورام) والمنظمة العالمية لحرية الثقافة (حوار - انكاونتر - بريف) وجمعيات الشبان والشابات المسيحية والاتحاد الدولي للشباب الاشتراكي ومكتب الصحافة للطلبة الاسيويين وجمعية أصدقاء الشرق الاوسط .. حين نقرأ هذه العناوين التي تهمنا نحن سكان هذه المنطقة من العالم ، نضع أيدينا في حقيقة الامر على الاخطبوط الرهيب لشبكة المخابرات الاميركية ، الاخطبوط الذي يشير بقوة وحسم الى دلالتين رئيسيتين : أولاهما ان الحرب الفكرية التي يشنها الاستعمار الاميركي على المنطقة العربية قد ازدادت ضراوة خلال السنوات الخمس الاخيرة ، أي بعد أن اختطت بلادنا منهج التطور الاشتراكي طريقا لحياة شعبنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فان اتخاذ هذا المنهج استتبع بالضرورة تقليم أظافر الرجعية المحلية المرشحة دائما - في ظل بعض الظروف - ان تقوم بدور العمالة للاستعمار أو التحالف معه سواء تم ذلك عن طريقالطبقات التي أضيرت مصالحها الاجتماعية فعلا ، أو عن طريق ممثليها الفكريين من المثقفين الضالعين معها .

أي أن غياب الارض الاجتماعية الصالحة لازدهار الفكر الرجعي قد تسبب في حماس الامدادات الاجنبية الواردة من الخارج .. غير أن هذه الامدادات نفسها ما كانت لتستقر أو تنتعش لولا انها وجدت « مناخا » مهيأ لاستقبالها بواسطة هذا النفر الذي ارتبطت مصالحه بالامداد الاجنبي ، واما بواسطة الرواسب الفكرية المتبقية مع انقضاض الطبقات المنهارة . وأخيرا بواسطة التخريب المتقن لثقافتنا الوطنية الذي كان يتم داخل الاجهزة الرسمية كما جاء في البيان الفاجع لوزير الثقافة في مؤتمر الكتاب العربي .

تنظيم سري لتهويد المسيحية

المسيحية « الحقيقية » لا علاقة لها بما يقال على ألسنة كبار رجال الدين المسيحي في العالم . الانجيل « الحقيقي » لا علاقة له بكل ما يتردد بين شفاه المسيحيين على ظهر هذا الكوكب . هذه الارضالتي نعيش عليها أن هي الا مملكة الشيطان . والخلاص من الجحيم لم يكتب الا لقلة مختارة هي سر الاسرار في كتاب « يهوه » ملك الملوك ورب الارباب .

هذه بعض الشعارات التي حملت لواء ذيوعها وانتشارها حوالي عام ١٩٥٦ مجموعة من الفتيات الجميلات اللائي لا تزيد أعمارهن عن العشرين عاما .. فكن يدخلن البيوت في القرى والاحياء الشعبية بالمدن ، وفي يمينهن « الكتاب المقدس » وفي يسارهن بعض الكتب الاخرى التي طبعت باللغة العربية وان تم طبعها كما يقول الغلاف في الولايات المتحدة الاميركية (1) .

وكانت هذه الكتب تحمل عناوين تقول « ليكن الله صادقا » او « في هذا خلاصنا » ، وهذه الفتيات الجميلات بجنسياتهن المختلفة ولغاتهن المتنوعة يصحبن معهن بعض الفتيات أو الشبان المصريين ، ويرسمن على شفاههن ابتسامة دائمة وهن يستأذن في دخول البيت المصري « لسماع كلمة الله » ..

ثم تنبهت الكنيسة المصرية الى أن شيئا غريبا يحدث ، فتعقبت هذه الاقدام الجريئة التي يزعم أصحابها انهم لا ينشرون دينا جديدا، وانما هم يكشفون الغطاء عن جوهر الدين القديم ، الدين الذي أسمه « يهوه » أول الالهة وآخرهم كما يقول أحد الكتب التي تقدمها مجانا الفتيات الجميلات .

والمعروف أن « يهوه » هو التسمية اليهودية لله ، كما جاءت في التوراة . واستطاعت الكنيسة المصرية أن تعرف أن هناك « مركزا عاما » لهذه الجماعة الوافدة من اميركا تتخذ لنفسها اسم « برج المراقبة » في القاهرة . وكان الاعضاء الاجانب والمصريين في هذا البرج يسمون أنفسهم « بشهود يهوه » ، رسالتهم المعلنة هي التبشير بفساد الحكم والحكام في ظل جميع الانظمة الاجتماعية المأخوذ بها في أي مكان ، وأن البشرية المعاصرة آلت نهائيا الى « ملكية ابليس » والخلاص الوحيد المنتظر هو للذين اختارهم يهوه العظيم .

وفي يونيو ١٩٦٠ صدر قرار من وزير الشؤون الاجتماعية يحمل رقم ١٥٥ « بشأن حل جمعية شهود يهوه - برج المراقبة للكتاب المقدس - وتصفية أموالها » وذلك بعد أن تأكد لسلطات الامن ان هذه الجمعية تمارس نوعا من العمل السياسي غير المشروع وتتستر في

(1) ارجو مراجعة التحقيقات الصحفية التي نشرتها مجلة « صباح الخير » في ٦ ، ١٣ - ٠٤ - ١٩٦٧ ومجلة « المصور » في ١٣ - ٤ - ١٩٦٧ .

تتمة حصان طروادة

اخفاء نواياها الحقيقية خلف « الدين » . وكان اشتباه رجال الامن والكنيسة معا هو ان الجمعية هي احدى المحاولات التي تبذلها الصهيونية العالمية من أجل « تهويد المسيحية » وبالتالي ايقاع البسطاء من المؤمنين في شراك الدعاوى الاسرائيلية .

وقد تأكدت هذه الحقيقة الان بعد ان اكتشفت جهات الامن في القاهرة ان « شهود يهوه » لم تحمل عصاها وترحل عن ديارنا عام ١٩٦٠ بل هي قد أعادت تنظيم نفسها تنظيما سريا تم القبض على بعض أفراده بتهمة « مزاولة نشاط لجمعية كان قد صدر قرار بحلها » .. وقد وقف الاعضاء الاثنا عشر المقبوض عليهم أمام المحقق يعترفون بانتسابهم « للبرج » وأنهم يجتمعون بصورة دورية ويجمعون من بعضهم الاشتراكات ، وأن المقر الرئيسي للجماعة في بروكلين بالولايات المتحدة . وما لم يعترف به الاعضاء أن « شهود يهوه » أحد المراكز الثقافية التي ترفع لافتة المسيحية بينما هي تسمح لوكالة المخابرات المركزية بالاسهام في تمويلها كما جاء في مقال جيفري وولف في الهيرالد تريبيون (الاهرام ١٤ – ٢ – ١٩٦٧) .

والامر من الناحية القانونية في أيدي سلطات التحقيق ، ولكن الذي يعنينا هنا هو الدلالة السياسية الخطيرة من زاويتين : الاولى هي استخدام ما يدعى بالثقافة المسيحية التي تصل بيوتنا اما عن طريق الفتيات الجميلات « شهود يهوه » واما عن طريق البريد « مراسلات جمعية أصدقاء الشرق الاوسط في بيروت » واما عن طريق كنائس هذه الجماعة التي ما تزال تمارس نشاطها المريب تحت اسم « السبتيين » أو « الادفنست » وهي جماعة تقصر رسالتها على الدعوة الى اتخاذ يوم « السبت » يوما للعبادة بدلا من الاحد . وهي دعوة شبيهة الى درجة كبيرة بدعوة شهود يهوه الى تسمية الله بالاسم اليهودي « يهوه » فالقاسم المشترك بينهما هو « تهويد المسيحية » ، ومن زاوية أخرى فان صدام هذه الجماعات المباشر مع قوانين البلاد للدرجة التي معها يخرجون على هذه القوانين فينشئون تنظيما سريا يجندون له أبناءنا المضللين وبناتنا المخدوعات .. أن هذه الظاهرة تعني أن التستر والتخفي لم يعد هو الاسلوب الوحيد لمعركة الاستعمار الفكري ، بل هو على استعداد لان يقاوم بالفعل لا بالكلمة وحدها، وأن يناضل بالحركة المنظمة لا الفكر المجرد .

وإذا كنا قد تنبهنا مؤخرا الى ضراوة المعركة الفكرية التي يشعلها الاستعمار في جبهات متعددة وفي وقت واحد ، فان علينا أن نتنبه اكثر فاكثر الى كافة الاقنعة والاسلحة التي ما يزال ينجح في استخدامها وتوظيفها . فجماعة شهود يهوه أو السبتيين لا يدخلون الى عقل المثقف المسيحي في مصر عن طريق الدين ، وانما عن طريق الثقافة . انهم يرصعون دعاواهم لا بكلمات المسيح او بولس او يوحنا ، وانما بكلمات نيتشة وشوبنهاور وشبنجلر .. ولا مانع لديهم من حفلات الرقص وسهرات الشراب والكتاب المقدس مفتوح بين الاذرع والسيقان والكؤوس !! هذا حدث في اجتماعاتهم في البيوت أو في « البرج » وما يزال يحدث في كنائس الادفنتست بعد « العظة » التي يلقيها أمهر القساوسة الاميركيين ، خاصة اذا تم اختيارهم من بين الزنوج الذين تقدمهم زوجاتهم البيضاء الى جمهور المصلين قبل البدء في الصلاة والحث على استبدال يوم الاحد بيوم السبت لعبادة الله .

الاستعمار لا يغير جلده

ان ظاهرة « الاستعمار الجديد » في الميدان الاقتصادي والسياسي لها جانبها الثقافي الملازم للظاهرة تلازما تلقائيا .. فالحرب الفكرية التي نشهدها الان لا تقوم على اساس « التدخل في شؤوننا الداخلية » الثقافية بل هي تربط المثقف العربي بعجلتها عن طريق التيسيرات المذهلة في تقديم المراجع الاميركية ـ العلمية والادبية ـ واصدار الموسوعات والمعاجيم التي تربط الثقافة العربية بالعجلة الاميركية آمادا طويلة من الزمن . خاصة وان المكتبة العربية قد خلت لظروف عديدة من المراجع والموسوعات والمعاجم التي لا سبيل الى الشك في مضمونها . ان المراجع التي تحتشد بها رفوف المكتبة الاميركية في القاهرة بأقلام أساتذة هارفارد وكاليفورنيا وبنسلفانيا أشهر الجامعات التي تمولها وكالة المخابرات المركزية ، ولكننا في المقابل لا نجد المراجع الوطنية البديلة أو المراجع الاجنبية التي لا يرقى اليها الشك . ويستخدم الاستعمار الثقافي الجديد أحدث منجزات التكنيك والعلم في الترويج للقيم والافكار المعادية لتطورنا الاشتراكي . وهو ينتهز بطبيعة الحال فرصة الضعف التي تشتمل عليها المرحلة الاولى من نمو الفكر الاشتراكي على ضوء التجربة المحلية البازغة في بلادنا . كذلك فهو ينتهز فرصة ان أجيالا عديدة من رجال الفكر العربي المعاصر قد حصلوا علومهم ومناهجهم بين احضان الجامعة الاميركية في بيروت ، او الجامعات الاميركية المشبوهة في الولايات المتحدة .

لهذا فاننا نطالب بضرورة تنفيذ نصوص اتفاقية التبادل الثقافي التي لا تبيح لاية مؤسسة أجنبية أن تشن هذه الحرب الضروس ضد عقولنا ووجداننا . ومن ناحية اخرى نطالب الاقلام العربية أن تكف عن التعاون مع مؤسسة فرانكلين بعد أن تبين لكل ذي عينين انها احدى قلاع الاستعمار الفكري الجديد ، ولا شك أن يقظة الضمير الوطني عند هؤلاء سوف تكون عاملا فعالا في سحب الارض من تحت الاقدام الاجنبية ما دام التواطؤ معها يؤدي الى الحافة الخطرة التي يسهل عند الوصول اليها الانزلاق الى مهاوي الخيانة الوطنية .

كما اننا لا نطالب مكتب الاستعلامات الاميركي ان يغلق ابوابه ، ولكننا نطالب بعدم تضليل القارىء باسم الناشر العربي والمترجم العربي ، بل لا بد من كتابة اسم مكتب الاستعلامات الاميركي على الغلاف ما دامت السفارة الاميركية هي جهة التمويل الحقيقية للكتاب . ومن ناحية أخرى فاننا نطالب دور النشر العربية بالكف عن التعامل مع مكتب الاستعلامات الاميركي بعد أن تبين خضوعه المباشر لاشراف وكالة المخابرات المركزية . فالمسافة تزداد ضيقا بين معنى التعامل ومعنى العمالة .

كما اننا لا نطالب باتخاذ اجراء معين من الجامعة الاميركية وانما نطالب بضرورة الاشراف القومي الكامل على مناهجها وأساليب الدراسة، أي أن تخضع لقوانين وزارتي التعليم العالي والتربية والتعليم بالنسبة لاوضاع التعليم الخاص في بلادنا .

اما المجلات والكتب الواردة من بيروت ، واما الارساليات التبشيرية الوافدة من بروكلين ، فلا مناص من منعها من دخول جمهوريتنا . لانها لا تدخل بأية حال من أبواب التبادل الثقافي واتفاقياته المشروعة ، بل هي تدخل من الباب الخلفي لوكالة المخابرات المركزية . وهو الباب الذي استطاع حصان طروادة الاستعماري ان ينفذ منه الى حياتنا الثقافية المعاصرة .

***

من أحدث الافلام التي أخرجها فرانسوا تريفور خارج فرنسا ، الفيلم الاميركي « ٤٥١ فهرنهيت » وهي درجة الحرارة التي تحترق عندها الكتب . وهو الفيلم الذي يثأر لشرف الثقافة الانسانية من غوبلز الالماني ، ومكارثي الاميركي .. فيصور الصراع بين همجية النازي والمكارثية وبين الحضارة الانسانية ممثلة في الكتاب ، وينتهي بالمتفرج الى أن النصر النهائي سوف يكتب للثقافة والانسان . فهل معنى ذلك ان الاستعمار الاميركي يسلم بهذه البديهية الصحيحة ؟ أم ان مرحلة الاستعمار الجديد استوجبت شكلا جديدا لميادين القتال الثقافية ، فلم تعد المكارثية الجديدة تحرق الكتب ، بل تصدرها ؟ أغلب الظن ان الاستعمار لم يغير جلده ولكنه يغير من أساليبه في الدفاع والهجوم فحسب . ولقد رأى اخيرا ان محاربة الثقافة بأسلحتها ـ وهي الكلمة المكتوبة والمسموعة والمرئية ـ أمضى اثرا من درجة « ٤٥١ ف » التي تحترق عندها الكتب ، وأخطر فعالية من مسدس غوبلز الذي يضع يده عليه كلما سمع كلمة « ثقافة » .

القاهرة

غالي شكري